

حول الوحدة العربية

إلى الدكتور طه حسين للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري بك

أيها الأستاذ :

لقد مضى نحو ستة أشهر على نشر الانتقادات التي وجهتها إليكم - في مجلة « الرسالة » - بمناسبة حديثكم المنشور في مجلة « المكشوف » البيروتية ، حول « الوحدة العربية وموقف مصر منها » ، وعلى نشر « الفصل الجواني » الذي أرسلتموه إلى « الرسالة » ردًا على تلك الانتقادات (١) .
لم أكتب إليكم شيئًا حول هذه القضية خلال هذه المدة لأسباب ستظهر لكم من الأسطر التالية ، ومع هذا أشر الآن بدافع قوى يدفعني إلى مخاطبتكم في هذه المسألة ، بالرغم من مرور هذه الأشهر الطويلة ، لمواصلة البحث فيها والمناقشة عليها

كنت غادرت بغداد إلى المغرب الأقصى قبل وصول عدد الرسالة الذي نشر فيه ردكم ، فلم أطلع عليه إلا في بيروت قبل سفري منها بالطيارة . قرأت الرد هناك فوقعت في حيرة عميقة ، لأنني انتهيت من قراءته دون أن أجد فيه كلمة واحدة يصح أن تعتبر ردًا على ملاحظاتي الاعتراضية ، أو جوابًا على أسئلتى الانتقادية . . . لأن الآراء المسرودة في الفصل كانت تحوم حول قضية « وحدة الثقافة » و « واجب مصر في أمر هذه الوحدة » في حين أن هذه القضية لم تكن في القضايا التي اختلفت معكم فيها ، بل كانت في القضايا التي شكرتكم عليها ، فإنني خست مقالتي الانتقادية بالبارات التالية :

« هذا ، واري ألا أختم اعتراضاتي ، دون أن أتوجه إليكم بكلمة شكر ؟ فإني أشكركم من صميم قوايدي على مناداتكم بتوحيد الثقافة بين البلاد العربية ، لأنني أعتقد أن توحيد الثقافة من أهم العوامل التي تهبط سائر أنواع التوحيد . فأقول بلا تردد : اضمعنوا إلى وحدة الثقافة ، وأنا أضمن لكم كل ما بقي من ضروب الوحدة . . . » فكان من الطبيعي أن أقع في دهشة عميقة من قراءة الفصل

(١) الرسالة عدد ٢٨٥ و ٢٨٦ - ١٩ و ٢٦ ديسمبر ١٩٣٨

الذي نشرتموه في الرسالة تحت عنوان « الرد »

وأخذت أفكر - وأنا أقطع الفضاء فوق أجواء البحر الأبيض المتوسط - في تحليل الخطئة التي انتهجتموها في هذا الباب : « كيف سوغ الدكتور طه حسين لنفسه أن يسمى هذا الفصل ردًا ؟ »

قلت في بادئ الأسر : يظهر أن الأستاذ قد شعر بالخطأ الذي وقع فيه فلم يجد مجالاً للرد على الانتقادات التي وجهت إليه ، ولم يرد مع هذا أن يعترف بذلك ، فأراد أن يتظاهر بالرد بنشر فصل لا علاقة له بموضوع الانتقاد والاعتراض غير أنني لم أرتح لهذا التفسير والتعليل ، لأنني استبعدت منكم أن تسلكوا مثل هذا المسلك في مناقشة قضية هامة مثل قضية الوحدة العربية ، فواصلت التفكير في الأمر إلى أن خطر على بالي تعليل آخر أقرب إلى العقل من التعليل الأول . يقول الدكتور طه حسين : إن الرد هو فصل من كتاب تحت الطبع ؛ أفليس من الممكن أن يكون قد حدث سهو في نقل الفصل من الكتاب ؟ قد يكون في الكتاب فصل يتضمن الرد ؛ غير أن الدكتور قد سها في رقم الفصل ؛ فالطبعة أرسلت إلى (الرسالة) فصلاً آخر غير الفصل المقصود

عندما لمحت هذا الاحتمال ، ركفت إليه كل الركون وقلت في نفسي : قد ينشر الدكتور في العدد التالي من الرسالة تصحيحاً لما حدث ؛ غير أن سفرائي السريعة سوف لا تترك لي مجالاً للاطلاع على ذلك قبل عودتي إلى بغداد . فلا بد لي من الانتظار إلى ذلك الحين للوقوف على التصحيح ، أو لقراء الكتاب

ولهذا السبب ، عند ما عدت إلى بغداد بعد إتمام رحلتي في المغرب الأقصى والجزائر وتونس وسقاية - أسرع إلى تصفح أعداد الرسالة التي صدرت في غيابي ؛ ولما لم أجد فيها شيئاً يتعلق بالموضوع الذي نحن بصدده ، طلبت نسخة من كتاب « مستقبل الثقافة في مصر » ؛ وأخذت أقرأ بانتباه شديد باحثاً فيه عن « الرد » . . . غير أنني وقمت في دهشة أشد من دهشتي الأولى عند ما انتهيت من قراءة فصول الكتاب بأكملها ، دون أن أصادف فيها أيضاً ما يصح أن يعتبر جواباً على أحد أسئلتى الانتقادية . . . فقلت في نفسي : لم يبق مجال لتعليل الأمر بنير الملاحظة التي كانت وردت علي ذهني عقب مطالعة الرد المنشور في مجلة الرسالة

أنه أصبح حديثاً . وأما أصحاب العقل الحديث فيفهمون هذه الوحدة على نحو ما تفهم عليه في البلاد المتحضرة بالحضارات الحديثة الأوربية . يفهمونها على أنها لا تنفع ولا تنفع إلا إذا احتفظت بالقوميات والشخصيات الوطنية والحريات الكاملة لأعضائها والسيادة العامة لهم في حياتهم الداخلية والخارجية وقامت على الحلف الذي لا يفنى أمة في أمة ، ولا يخضع شعباً لشعب ، وإنما يمكن الأمم من أن تتعاون على أساس ما يكون بين الأنداد من المساواة . فإذا قال صاحب العقل الحديث مقالته هذه ضاق به صاحب العقل القديم أشد الضيق ، لأن عقله لم يتطور بعد ، ولم يستطع أن يكون من أهل العصر الذي يعيش فيه ، وإنما هو محتفظ بكل شخصيات القرون الوسطى ، وهبات لم شخصيات القرون الوسطى أن تسيغ ما يقع في القرن العشرين ... »

يظهر لي من كلماتكم هذه أنكم بعد أن تهربتم من مناقشة مسألة الوحدة العربية مناقشة مباشرة - حين دُعيت إليها - أردتم أن تعودوا إليها عن طريق التعمير والتلويح ، كما وردتم أن تستهوا أذهان قرائكم عن طريق اتهام معارضيتكم بالتمسك بـ « شخصيات القرون الوسطى » ، وإلباس رأيكم حلة قشبية من « مقتضيات العقل العربي الحديث » .

فاسمحوا لي إذن أن أتبعكم في هذه الطرق اللتوية ، وأن أزن ملاحظاتكم بميزان « العقل العربي الحديث » الذي تشيرون إليه . لا أدري إذا كان الانصراف عن مناقشة المسائل مناقشة مباشرة ، والالتجاء إلى طرق « التعريض والتشويش » في أمرها مما يفيد - في عرفكم - في مقتضيات العقل الحديث . غير أنني أعتقد أنكم تسلمون مني - على كل حال - بأن العقل العربي الحديث يجب أن يكون على غرار العقل الأوربي الحديث ، ولا تنكرون - بالطبع - أن « العقل الأوربي الحديث » يتطلب السير على مناهج الأبحاث العلمية ، على أساس استنتاج الوقائع والحجج واستقراءها مشجراً عن تأثيرات الميول النفسانية والآراء القبلانية ...

فلنتعم النظر في الملاحظات التي نقلها آنفاً عن مقالكم لثري مبلغ ملامتها لمقتضيات « العقل العربي الحديث » التي تدعون إليه: أولاً ، إنكم تبحثون في كلامكم هذا عن الوحدة العربية والوحدة الإسلامية كأنهما مسألة واحدة ، في حين أن إحداهما تختلف عن

مع هذا لم أشأ أن أكتب شيئاً حول هذا الموضوع ، للملاحظتين التاليتين : أولاً ، كان قد مضى على نشر ردكم مدة تتأخر ثلاثة أشهر بسبب ظروف رحلتي . ثانياً ، إن « تباعد الرد عن موضوع البحث والمناقشة » كان من الأمور الجلية التي لا يحتاج إلى التوضيح والتنبية ؛ كما ظهر لي ذلك من أقوال الشبان الذين حدثتهم خلال رحلتي في باريس ، وتونس ، وسورية فقلت في نفسي : لا داعي إلى كتابة شيء في هذا الموضوع بعد انقضاء هذه المدة ، مادام رد الدكتور طه حسين لم يكن من النوع الذي يستطيع أن يخدع أحداً من القراء الأذكياء ولذلك لم أعد إلى هذا البحث منذ ذلك الحين

غير أنني اطلمت أخيراً على مقالكم المنشور في العدد الممتاز من مجلة الهلال ، عن « العقل العربي الحديث » . ورايت أنكم عرضتم في ذلك المقال لمسألة « الوحدة العربية » بطرق ملتوية : بعد أن سردتم بعض الآراء حول « تطور العقل البشري » بوجه عام ، وتطور « العقل الأدبي الحديث » بوجه خاص ، بحثتم عن وجوب « تجديد العقل العربي » ، وذكرتم ما تعتقدونه في وسائل هذا التجديد ... وفي الأخير ، انتقلتم إلى مسألة « الوحدة العربية » بطريقة « ظريفة وطريفة » إذ قلتم ما يلي :

« وربما كان من الأمثلة الظريفة الطريفة التي تبين الفرق بين العقل العربي القديم ، والعقل العربي الحديث في هذا العصر الذي نميش فيه ، مسألة الوحدة العربية أو الوحدة الإسلامية التي يكثر فيها الكلام وتشتد فيها الخصومة ؛ فإظن أن الناس يختلفون في أن هذه الوحدة نافعة للشعوب العربية وللشعوب الإسلامية أشد النفع ، وفي أن مصالحهم تدعوهم إليها وتدفعهم إليها دفعا ، ولكنهم مع ذلك يختلفون ويختصمون لا شيء إلا لأنهم يختلفون في تصور هذه الوحدة حسب ما يتاح لهم من العقل القديم أو العقل الحديث . فإما أصحاب القديم فيفهمون هذه الوحدة كما فهمها القدماء في ظل سلطان عام شامل يسطر عليها جناحيه ويحوطها بقوة وبأسه ، وليس هذا السلطان خلافة ، وليس ملكاً كما كان يسمى قديماً ، ويجوز أن يسمى إمبراطورية ليكون له حظ من الطرافة ، فقد عرف القدماء الإمبراطوريات واحتفظ بها المحدثون من الأوربيين . وكذلك يخدع العقل القديم نفسه فيظن

هذا - بأن « الوحدة » نافعة لـ « الشعوب العربية والإسلامية » أشد النفع ؛ ويقولون بأن الناس لا يختلفون في منافع هذه الوحدة ، إنما يختلفون في « تصورهما حسب ما يتاح لهن من العقل القديم والعقل الحديث » ... كما تصفون لنا نوعي هذا التصور وصفاً بارعاً : بالنوع الذي يقول به « صاحب العقل القديم » ، وهو الذي « يتصور الوحدة تحت ظل سلطان شامل » ؛ والنوع الذي يقول به « صاحب العقل الحديث » ، وهو الذي يتصور الوحدة على أساس ما يكون بين الأنداد من المساواة ...

أنا لا أود أن أبحث عن مبلغ مطابقة وصفكم هذا للحقائق الراهنة ؛ غير أنني أرى من الضروري أن أقول لكم في هذا المقام إنني قد اطلعت - قبل مدة - على رأي في « الوحدة العربية » يختلف عن هذين الرأيين في وقت واحد : فإن صاحب ذلك الرأي ، كان لا يقبل « الوحدة » ، « ولو كانت على أساس المساواة » ، ولا يرضى بالوحدة ، « ولو كانت على نمط اتحاد يشابه الاتحاد الأميركي أو السويسري » ... فهل تسمحون لي أن أسألكم : أعتبرون موقع هذا الرأي في العقل القديم أم العقل الحديث ؟

لا أشك في أنكم لن تطلبوا مني أن أذكر لكم اسم صاحب هذا الرأي ؛ غير أنني أظنكم سوف تعذروني إذا ذكرت ذلك تنويراً للقراء :

إن صاحب هذا الرأي - الذي يخالف مقال صاحب العقل القديم ومقال صاحب العقل الحديث في وقت واحد - هو صاحب « الحديث » المنشور في مجلة « المكشوف » ... ذلك الحديث الذي كان مبدأً ومنشأً لجميع هذه المناقشات ،

فقد قرأت في ذلك الحديث ، العبارة التالية ، بحروفها : « مصر لن تدخل في وحدة عربية ، حتى ولا اتحاد عربي ، سواء أكانت مساوية فيه للأمم العربية الأخرى أو مهيمنة عليها ... » (المكشوف - العدد : ١٧٥ - الدكتور طه حسين يتحدث عن العروبة ...)

كما قرأت في مكان آخر من ذلك الحديث العبارة التالية ، بنصها :

« الوحدة العربية ، كما يفهمها ذووها يجب أن تتحقق بشكل إمبراطورية جامعة أو اتحاد مشابه للاتحاد الأميركي أو السويسري ».

الأخرى اختلافاً كلياً . فإن فكرة « الوحدة العربية » ترى إلى توحيد الشعوب التي تتكلم بلغة واحدة ، في حين أن فكرة « الوحدة الإسلامية » ترى إلى توحيد الأمم التي تتكلم بلغات مختلفة ، بالرغم من تدينها بدين واحد ؛ فالبيان بينهما شاسع جداً ، فإن الدعوة إلى « الوحدة العربية » تتضمن الدعوة إلى الوحدة الإسلامية الشاملة ؛ كما أن عدم الإيمان بإمكان تحقيق « الوحدة الإسلامية » لا يستلزم إنكار إمكان تحقيق « الوحدة العربية » . ولذلك أقول بلا تردد إن خلط هاتين المسألتين ، والنظر إليهما بنظرة واحدة ، يخالف أبسط حقائق علم الاجتماع ، وأبرز وقائع تاريخ السياسة ، ولا يتفق مع الحقائق الراهنة بوجه من الوجوه ومن التريب أنكم لا تكتفون بالخلط بين هاتين المسألتين ، بل تحشرون بينهما مسألة الخلافة أيضاً بصورة غريبة ، وتنظرون إلى هذه المسائل كلها بنظرة واحدة . لقد نمودنا أن نرى آثار مثل هذا الخلط ، في كتابات بعض الساسة من الأوروبيين المستعمرين ، لأنهم ينظرون - عادة - إلى هذه المسائل كلها من وجهة نظر أطماعهم الاستعمارية ، ويسعون إلى وصف جميع الحركات القومية والوطنية بوصمة « التعصب الديني » ليشيروا الرأي العام الأوروبي عليها ... غير أننا ما كنا ننظر منكم أن تقتفوا أثر هؤلاء الساسة من حيث لا تشعرون ، وأن تخطوا بين هذه المسائل بهذا الشكل الغريب .

فأرى من واجبي أن أصرح لكم في هذا المقام ، بأني مع عدد كبير من المفكرين القوميين الذين أعرفهم وأتصل بهم على الدوام أنظر إلى قضية « الوحدة العربية » كقضية مستقلة عن قضايا « الوحدة الإسلامية » و « الخلافة الإسلامية » كل الاستقلال . وأؤكد لكم أنني - بقدر ما أؤمن بفكرة العروبة ، وبقدر ما أعتقد بإمكان الوحدة العربية ، وبقدر ما أقول بوجود السعي وراء تحقيقها - أعتقد باستحالة « الوحدة الإسلامية » ؛ وأقول إن « إثارة فكرة الخلافة » مضرة بـ « قضية الوحدة العربية » و « فكرة التضامن الإسلامي » في وقت واحد

هذا ومن جهة أخرى لاحظ أنكم تطلبون - في مقالكم